"سنكون يوماً ما نريد"

رنا فارس

المعلمة رنا فارس.

«كان يا مكان في قديم الزمان» ... هكذا دوماً تبدأ الحكايات، ولكن حكايتي تبدأ عندما أشاهد صوراً في مخيلتي تمر كشريط سينمائي، تبدأ مع الحاضر وتمر عبر حقب تاريخية مضت ... تعجبني كلمة «حقبة»، وبخاصة أنني أستخدمها كثيراً في مجال التاريخ؛ كوني معلمة تاريخ، تلك المادة التي عندما يسمعها البعض تقشعر أبدانهم، أو يقولون لك: «آها جيد»، ولكن تنتابهم علامات تعجب، تتزامن مع إيماءات وجوههم. لربما للكم الهائل من المعلومات التي تحتاج إلى ذاكرة قوية لحفظها، ولربما لربطهم التاريخ بمنهاج مدرسي، ولربما لقناعتهم بعدم حاجاتنا لدراسة تاريخ أمريكا أو أفريقيا، فهم لا يدرسون تاريخنا. هذه الآراء حفرت في عقول طلابنا وطالباتنا، ولربما في عقلي أنا أيضاً.

فحكايتي مع التاريخ، كحكاية تلك الصور داخل ذلك الشريط الذي يستطيع احتضان آلاف الصور، فلكل صورة ذاكرة وحكاية، ولكل صورة نكهة خاصة، تقف عند حدث يمر معها عبر مراحل الطفولة، يسافر عبر عتبات الزمان والمكان، ليتنقل إلى تلك الغرفة التي جمعت ما يقارب الثلاثين طفلاً يلعبون ويلهون لا يدركون أي مخاطر أو لا يعرفون سوى كيف يلونون أو يكتبون بعض الحروف. لقد تعلمنا الحروف وحفظنا أناشيد وآيات، لكن رحلاتنا لم تتجاوز الأمتار، وكنا نسعد بها. لم تكن الروضة سوى مكان يسعد قلوبنا، بمهارة ذلك الشريط الذي يستطيع تحريك الذاكرة وكأنها دمى متحركة وأصوات كثيرة. علقت بذهني أصوات لأجراس الكنيسة التي كنت أسمعها عند ساعات الظهيرة، وذلك لوجودي في مدرسة خاصة. فالتاريخ يحكم، وأحياناً يحكم بطريقة عشوائية، فتاريخ ميلادي يمنعني من بدء مشواري التعليمي في مدارس الحكومة، لأنها ترتبط بتواريخ محددة لا يجوز تخطيها. لم أكن افهم بعد عندما قالت مديرة المدرسة لوالدتي: لا أستطيع تسجيلها، ولكني فرحت أنني لست كالبقية، سأدخل الصف الأول وفي مدرسة بعيدة عن قريتي، لست كالبقية فسأركب الحافلة لأصل مدرستي على الرغم من أن المدرسة الحكومية لا تبعد عن بيتي سوى امتار، فسأدرس اللغة الإنجليزية والفرنسية، فأنا لست كبقية صديقاتي. أستذكر تلك المدرسة بجماليتها، فمعها بدأت أتعلم وأقرأ، بساحاتها تتنوع الأديان –مسلم ومسيحي– لا فرق بينهما، يجلسون على طاولة واحدة في صف واحد، يتبادلون الحكايات والضحكات أو تمارين الصباح. أمضيت خمس سنوات، ولكنها مضت وكأنها سنة. لم تكن مدرستي كبقية المدارس، لربما لتميزها بمعاملة مختلفة، أو لربما لكونها من المدارس الخاصة، أو لكونها أصبحت جزءاً من تاريخي وحكاياتي ... لا أعلم! جاء موعد الإبحار في

الذاكرة، استذكر انتقالي إلى مدارس الحكومة، أراها كما لو أن الصورة التقطت في هذه الساعات، لأنه، وبطرق ملتوية، أو ما يسمونه تحايلاً على القوانين، فإن الطالب بعد سنوات عدة في المدارس الخاصة، يستطيع العودة إلى مدارس الحكومة، فتكاليف المدارس الخاصة لا تتوافق مع القدرات المادية للعائلة، وبما أنني أستطيع العودة إلى استكمال المراحل التعليمية فيها، فلا بد لي من العودة . ها قد عدنا والعود أحمد ... لا أظن ذلك!

حزم ... هدوء ... الهدوء! لربما خوفاً لا بل هو الخوف أكيد، فالعقوبات كانت تسبق الجرم، وعن أي جرم نتحدث، إما أن يكون طلب ممحاة أو مسطرة، والجرم الأكبر الخروج من الصف والوصول إلى غرفة المعلمات. الصف أشبه بذلك الأسر، أما غرفة المعلمات فهي تلك القنبلة الموقوتة بوصولك إليها لا تعلم ماذا ستكون النتائج. المعلمة ذلك الإمبراطور الذي لا تستطيع الوصول إليه. عن أي وصول أتحدث، فلا تستطيع حتى التفكير بالأمر. ففي أحد الأيام، رفضنا الدخول إلى الصفوف أنا ومجموعة من الطالبات، وذلك لإحياء ذكرى استشهاد القائد خليل الوزير. لم أشعر يومها سوى بعصي قمت بعدها تجاوزت العشر، وحرماني من الإلقاء عبر الإذاعة المدرسية، لأننا -وبحسب مفاهيمهم- نقوم بعمليه تحريض. قرارات حاسمة لا مجال لتغييرها. ننهي بعض الصفوف ونتنقل بين مدارس الحكومة لعدم وجود صفوف لإنهاء المراحل التعليمية في المدرسة نفسها، انتقال لا يعني أنك غيرت فقط الغرفة والأصدقاء، وإنما غيرت أحلامك، فهي تكبر معك لتنتقل إلى ذلك العالم الذي تضعه أنت بنفسك دون تدخل من أحد. حلمت كثيراً أن أكون مضيفة طيران، ولم أكن أدرك أنه لا توجد طائرات أو حتى مطارات، لربما هي أحلام طفولة تسبح في فضاءات لا حدود لها. لم تكن أحلامي مقيدة بسياسات أو عادات أو حتى جامعات. تنتقل الأحلام لنترك الفضاء وجماليته. تهبط الطائرة بأحلامنا، وأتخيل وجودي أمام قاض أقول له: سيدي القاضي كم حلمت بهذه الكلمات أن أدافع فيها عن مظلوم أو مظلومة، ولكن بُعد الجامعات لم يلون ذلك الحلم ... .

تركنا الفضاء والطائرة وهبطنا إلى الأرض واصطدمنا بواقع المسافات. بعد اثني عشر عاماً من حمل الحقيبة، والاصطفاف في الطابور، والجلوس على مقاعد الدراسة، والالتزام بالقوانين، نركب السيارة ونخوض تجربة الجامعة. بدأت بدراسة متطلبات كلية الآداب، ومع البدء بمتطلبات العلوم السياسية، بدأت الأحلام تعاود كرتها لتنقلنا إلى طموح بدا يكبر بكبر أعمارنا. علوم سياسية لا بد أن أكون سفيرة، فدراسة العلوم السياسية تقترن بالتاريخ أو الجغرافيا. درسنا واجتهدنا وتخرجنا لنصل إلى سوق العمل أو السفارة، لربما الأحلام لا بد أن تقف عند سقف معين، ومعايير تؤخذ بالحسبان، فهذا الوقت تزامن مع إغلاق التعيينات باستثناء وزارة التربية والتعليم، لتصبح المخرج الوحيد، أو أن أكون عاطلة عن العمل.

أن أكون معلمة لم أطمح، ولم أتخيل، أو حتى مجرد التفكير بالأمر، وبعد أشهر من التخرج، وتقديم طلب التوظيف، تم التعيين. من هنا تبدأ الحكاية وتنتهي الأحلام، جاء التعيين في إحدى مدارس الذكور. قلت في نفسي: فليكن، وماذا يعني أن تكون مدارس إناث أو ذكور، المهم الوظيفة. ذهبت، ولكن كان تفكيري كيف لي من بعد السفارة وعلاقات ولغات ومكاتب وورش حلمت بها، أن أكون معلمة. دخلت إلى المدرسة وكتابي بيميني، فقد حصلت على وظيفة. أمر في ساحة المدرسة وفي عقلي تدور الأفكار «سفارة ، معلمة، وظيفة، عاطل عن العمل»، تناقضات بدأت تتعارك في عقلي لأصل إلى غرفة الإدارة، وأقابل مدير المدرسة، وبطريقة استفزازية، تم رفضي من مدير المدرسة، ليس لأني لا أصلح، ولكن حسب معاييره أن وجود معلمة غير ملتزمة باللباس الشرعي لا مكان لها في مدرسته. قام باتصاله وطلب مني العودة إلى مديرية التربية لأنه لا يوجد لديه شاغر لي، على الرغم من معرفتي بوجود شاغر لمعلم تاريخ. كان هذا أول قهر لي في العملية التعليمية، فعلى الرغم من ردي عليه أن اللباس الشرعي لا يعكس ماهية الفرد، ولا تستطيع تقييمي من خلال لباسي، فإن صوته كان مسموعاً أكثر مني. بعد أسبوع تم تعييني في مدرسة للإناث، لم أكن أريد أن أرى طالباتي كما كنت. لا استطيع أن أقول لهن كما قيل لي: هل ترون هذه الفقرة .. مهمة اقرؤوها. لا استذكر يوماً في حصة التاريخ أن كتب شيء على السبورة، كانت أشبه بحصه مطالعة، يلون خلالها الكتاب والفقرات، فهنا مهم، وهناك مهم. لم أرَ الخريطة أو لربما لم تكن قد رسمت بعد، لم تكن تحضر إلا بوجود شخص غريب في غرفة الصف. أدركت الآن بعد عملي أنه مشرف يجيء لحضور حصص للمعلمة. قررت أن أغير، حاولت أن أشرح، وبما أنها المحاولة الأولى لدي، طالعت كتباً، حاولت أن أبتعد عن التلقين وأشرك الطالبات، سارت الأمور مع بعض التغيير ... .

أصبحت كلما وقفت أمام طالباتي وإلى جانبهن، أرى أنه يتوجب علي أن أبدأ بالتغيير بمساعدتهن لي. بدأت العلاقات تزداد عمقاً، وشعرت أنني وإياهن جزء من منظومة لا بد من تغييرها والارتقاء بها، إلى جانبهن أصبحت أشعر أن التعليم متعة ... جمعتنا حصص صفية كانت بالنسبة لي ولهن أشبه ببحر أستطيع معهن اغتراف جزء ضخم من علومه ومعارفه، وفي ذهني تدور كلمات إلى ماذا سنصل؟ وهل سنستطيع التغيير؟ بدأت معهم تحدي

الجمود والروتين ... بدأت الفراغات تمتلئ بالمعارف والثقافات ... سمعت وأنصتُّ، والأجمل دائماً وجوه طالبات اللواتي أوصلنني إلى أن للتعليم نكهة. أصبحت أدرك أن عقم الكتاب يمكن أن يستبدل بصورة وصوت، برواية وفيلم. بدأت أدرك أن الثقافة للطالب لا تتفق مع هذا العقم، وأن الطالب قادر على انتقاء ما يريد، أو ماذا يستطيع أن يحفر في ذاكرته. فالطلاب هم الأقدر على تقييم ما يرونه أو يقرأونه. وبما أن للأسلوب والكلمات حكاية تقرب وتشجع، بدأت أشعر أن التعليم ليس وظيفة فحسب، بل هو حياة زاخرة بالألوان، نستطيع معها أن نرى الأشياء كما نحب، لا كما هو مخطط لنا أن نراها، لتصبح الألوان ذلك الطوق الذي رفعني من غرق التلقين. أصبحت الغرفة الصفية محوراً لرسم حياة تعليمية لطالما افتقدتها في دراستي. حواجز الخوف أزيلت، وبني مكانها جدار من الثقة بيني وبين طالباتي، ثقة بقدرتنا على رسم أحلامنا. لربما سوء الظروف التي عايشتها أوجدت ذلك الحافز لإثبات معكوس تلك الكلمة على الرغم من أنهم يقولون «فاقد الشيء لا يعطيه»، إلا أنني استطعت إثبات أن فاقد الشي يستمتع بأحلامه، ويستطيع أن يترجمها على أرض الواقع. ولرسم تلك الأحلام، لا بد من تغذيه الثقافات وتبادلها، فالتحاقي ببعض الورش التي نظمها مركز القطان للبحث والتطوير التربوي كالمدرسة الصيفية: الدراما في سياق تعلمي، والسينما، والمسرح، والتقائي بشخوص أوجدوا للعلم معناه، كل ذلك عزز بعض الفراغات التي استطعت أن أملأها مع زملاء لي التحقوا بهذه الورش، وشكلوا لي ذلك الإناء المليء بالمعارف. وعلى الرغم من البعد الجغرافي بيننا، فإننا التقينا في طريق واحد، وهذا الطريق بني على أسئلة مهمة: كيف نصلح ونغيّر؟ كيف يمكن لنا أن نكتب التاريخ لا أن نقوم بقراءته؟ كيف لنا أن نبني مع طلابنا وطالباتنا طريق الثقافة والعلم؟ أوجدنا طرقاً مختلفة، وفتح أمامنا النور لنرى التاريخ كيفما نشاء لا كما هو مخطط. استطعنا أن ننتقي الصحيح والأصح. حللنا ورسمنا التاريخ، فتفاعلت معه العقول، ونتاجاته انعكست على الطلاب، فالثقافات تنوعت وغذيت. أصبحت أدرك أن التعليم ليس ما يكتب. لقاءات كشفت لي عجز الكتاب عن إيصال فكرة. وجدت أن التاريخ حكايات وأشرطة، وفي كل شريط صور ارتسمت فيها ابتسامة طالبة لتصبح للحكاية نكهة، وللتعليم متعة، وأيقنت المقولة التي ترسم حروفاً لتقول: سنكون يوماً ما نريد ... لا الرحلة ابتدأت، ولا الدرب انتهى.

مدرسة الشيخة فاطمة الثانوية

المعلمة رنا فارس خلال أحد لقاءات الدراما في التعليم التي نظمها مركز القطان للبحث والتطوير التربوي العام 2014.